الثورة العربية ، وقضاياها الراهنة

كما يراها الدكتور عصمت سيف الدولة

حوار أجراه: حبيب عيسى

المصدر: كتاب " السقوط الأخير للإقليميين في الوطن العربي"

القاهرة في ١٣- تشرين الثاني- ١٩٧٧

أسئلة كثيرة كانت تتدفق في ذهني بينما كنت متجها لمقابلة المفكر العربي الكبير عصمت سيف الدولة الذي قدم عشرات الكتب والدراسات لاغناء مكتبة الفكر القومي التقدمي في الوطن العربي وساهم مساهمة إيجابية لا يمكن لاحد إنكارها، أو تجاهلها في حل الأزمة المنهجية وتأصيل الفكر القومي ليتمكن من تحديد مسار الشباب العربي وتحديد اتجاهه على الطريق العلمي والموضوعي لمجابهة أعداء لا يدخرون سلاحا من أول الصواريخ إلى آخر الكلمات.
فمن أين نبدأ...؟

قلت: هل توافقون على أن التيار القومي التقدمي في الوطن العربي يمر في أزمة...إذا كان كذلك ، فكيف ترون انه يستطيع تجاوز أزمته؟

قال: أخشى ألا أكون قادرا على معرفة الدلالة التي تعنيها من التعبير اللغوي " التيار التقدمي في الوطن العربي"..واني لآسف على أن تكون بداية الحديث مشمولة بالغموض، أو أنني أراها كذلك، ولي في هذا عذر أرجو أن تقبله، إن الكلمات قد أصبحت في الوطن العربي ذوات دلالات مختلفة، وهي دلالات متاحة لمن يريد أن يخفي ما يريد بغطاء من الكلمات: التيار..؟ ما التيار..؟..ما الفارق بينه وبين الحركة والحزب والاتجاه...الخ، القومي..؟ ما القومي...؟

لقد كنا نحسب يوم أن كنا حسني النية بما يقوله الآخرون أن القومي تعبير عن شخص ينطلق من التسليم بالوجود التاريخي للأمة العربية إلى غاية ثابتة هي الوحدة، كان القومي يعني الوحدوي، ولكن التاريخ المعاصر ، شديد المرارة ، قد علمنا أن دعم التجزئة والانفصال وحتى التنازل عن ارض الوطن القومي ، يمكن أن يتم تحت ألوية تحمل لفظ القومية. بل يمكن أن تبرر بعظات من القومية...ثم تقول: التقدمي ...ما التقدمي..؟إن المجتمعات كلها تتقدم بفعل قانونها الذي لا فضل لاحد فيه فهل يكفي مجرد السباحة مع تيار التحول الاجتماعي التلقائي ليكون الإنسان تقدميا...؟!

لقد كنت ، ولم أزل، أجد هذا غير كاف، وكنت، ولم أزل،احسب أن التقدمية موقف من حركة المجتمع يتحكم فيها جدليا لتحقيق مستقبل يتجاوز ما هو متوقع تلقائيا، إلى فرض ما يريده الإنسان إشباعا لحاجات البشر، وكنت ، ولم أزل، احسب أن مضمون تلك الحاجات مضمون نسبي، بمعنى أن لكل مجتمع في زمان معين مضامين فكرية أو روحية أو مادية تحدد الموقف التقدمي،وان تلك المضامين تتغير من مجتمع إلى مجتمع ومن زمان إلى زمان في المجتمع الواحد...وكنت احسب أن الموقف التقدمي لا يتجزأ، كما أن مشكلات أي مجتمع معين لا تتجزأ، وحركته إلى المستقبل لا تتجزأ، وكنت أحسب ، بناءا على ما تقدم أن الموقف التقدمي في الوطن العربي في هذه المرحلة هو الموقف " التحرري الوحدوي الاشتراكي"معا...وان

الموقف المضاد للتحرر والاشتراكية ليس تقدميا، وان الموقف الاشتراكي المضاد للتحرر أو الوحدة ليس تقدميا..فانظر حولك ماذا ترى...؟!!

باسم التقدمية تجهض معارك التحرر وتبتسر حتى يتفرغ أصحابها لما يدعونه من أهداف وحدوية أو اشتراكية...وباسم التقدمية يتواطأ الرجعيون ضد الاشتراكية ويطرحون الوحدة هدفا وحيدا، وبأسم التقدمية تذهب بعض الفصائل الاشتراكية إلى حد التشكيك بالوجود التاريخي للامة العربية ذاته ويقاتلون على كل المستويات الفكرية والحركية،الظاهرة أو الخفية ضد الوحدة...

فكيف يمكن في مجتمع " بابل" هذا أن تتوقع – بعد كل التجارب- أن اعرف ماذا تريد بقولك:" التيار القومي التقدمي في الوطن العربي..." ، لقد تعلمنا الحذر من فرط ما جنى علينا الاستعمال المضلل لكلمات كانت يوما مقدسة الدلالة...

ومع ذلك، فحتى لا يذهب سؤالك بدون جواب، دعنا نقول أن القومي هو الوحدوي...أو أنه التقدمي..يستويان، فلا يمكن أن يكون تقدميا في الوطن العربي إلا الوحدويين، ولا يمكن أن يكون الوحدويون إلا تقدميين،...بهذا المعنى

فإنني أستطيع ان أقول أن التيار الوحدوي أو القومي أو التقدمي...وكلها مترادفات، منحسر ولكنه ليس في أزمة، أما لانه منحسر فلان القوى الإقليمية او الرجعية أو الانفصالية وكلها مترادفات ...تسيطر سيطرة تكاد تكون كاملة على مقدرات الوطن العربي، البشرية والمادية، وتتحالف لتحقيق غاية واحدة لا تحررية ولا وحدوية ولا اشتراكية، انه حلف رجعي مهما رفع من لافتات...، ولكن هذا الحلف الرجعي مضطر لاسباب واقعية أن يستر حركته بما يعد به الشعب العربي من تحقيق الحرية والوحدة والاشتراكية، وقد استطاع بما يملك، هو وأعوانه، من أجهزة الإعلام والتوجيه والتأثير أن يجمد حركة قطاعات كبيرة من الجماهير العربية في مواقع الانتظار لترى هل يصدق فيما بعد. ولما كان التيار القومي التقدمي يطلب من الجماهير العربية تضحيات ثورية لتحقيق ذات ما يعد به الإقليميين، يقينا منه بان وعودهم كاذبة فان الجماهير العربية المرهقة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا تفضل الآن أن تنتظر ما يعد به الإقليميون قبل ان تلبي نداء الثورة العربية وتواجه تضحياتها...وهكذا أرى، في السكون والترقب الظاهرين دلالات على انحسار التيار القومي التقدمي مرحليا...

أما عن الأزمة فليس التيار القومي التقدمي في أزمة...بالعكس...لأن الفشل الإقليمي في تحقيق وعود الحرية والوحدة والاشتراكية فشل محتوم، ويندفع الإقليميين بسرعة متزايدة إلى نهاية طريقهم المسدود...وعندما يصلون- قريبا- سيسقطون دفعة واحدة ولن يكون ثمة بديل إلا ثورة الجماهير العربية، حيث يجتاح التيار القومي التقدمي ، الذي تراكمت قوته في مرحلة الانتظار كل بقايا التيار الفاشل، وهكذا ترى أن الإقليميين إذ يقتحمون تجربة هي بحكم حقيقتها الموضوعية قومية، يفشلون حتما، ثم انهم يقدمون من فشلهم ذاته دعما لإمكانيات انطلاق التيار القومي التقدمي إلى غايته....

هذا لايعني أن على التيار القومي التقدمي أن ينتظر نهاية المطاف الفاشل،إذ أن جماهير امتنا هي التي تدفع ثمن فشل الإقليميين، وما كان يجب على التيار القومي التقدمي أن ينحسر أو يقبل الانحسار،ولكني اصف هذه المرحلة من تاريخ امتنا،أما لماذا انحسر التيار القومي التقدمي أو قبل الانحسار، ولماذا استطاع الاقليميون أن يفرضوا الانتظار على جماهير امتنا،

فلذلك أسباب تاريخية لم تعد ثمة فائدة من أن نبكي على ما فاتنا منها...وما يزال التيار القومي التقدمي قادرا على أن يأخذ دوره القيادي المشروع...ومع ذلك فحتى لو لم يأخذه الآن فإنني أتوقع ظرفا تاريخيا شديد القرب ستسقط فيه كل البدائل عن التيار القومي التقدمي كلتي استهلكتها المحاولات الفاشلة، حينئذ ستتاح الفرصة التي انتظرتها الآمة العربية منذ أوائل هذا القرن ...اعني نضج الظروف الموضوعية لتحقيق دولة الوحدة ثوريا.

أداة الثورة تبنى في ساحات المعارك...

قلت: تحقيق الوحدة العربية في الوطن العربي كما تلحون دائما يقع على عاتق الجماهير العربية، بل، وبالتحديد على عاتق أداة الثورة العربية الواحدة، أو التنظيم القومي كما تسمونه، فحتى تتمكن الجماهير العربية من بناء أداتها الثورية كيف تستطيع ان تساهم في درء الأخطار التي تهدد الوطن العربي في هذه الأيام، والتي لن تنظر الجماهير العربية حتى تصنع أداته..؟

قال: إن هذا السؤال وليد فروض مستحيلة،اعني أن قوانين التطور الاجتماعي وقوانين العمل السياسي،وقوانين النشاط الثوري جميعا، لاتسمح به، ذلك أن الممكن لا ينفصل عما يجب أن يكون، ومجرد تصور أن الجماهير العربية ستتمكن من بناء أداتها الثورية في عزلة عن اقتحام الأخطار التي تهدد الوطن العربي هذه الأيام مستحيل في رأيي،كما أن تتصور أن المخاطر لن تنتظر الجماهير العربية حتى تصنع أداتها هو أيضا تصور مستحيل، ذلك لان أداة الثورة العربية لن تبنى بالتأمل السلبي والمراقبة الانعزالية، لما يحيق بالأمة العربية من مخاطر، بل ستبنى لبنة لبنة من خلال الصراع ضد أعداء الأمة العربية،ودفع المخاطر التي تهددها، تبدأ بالممكن المتاح، وتتنامى خلال الصراع لتسفر عن التنظيم القومي أداة الثورة العربية، كما ان المخاطر لن تنتظر الجماهير العربية لانها نخاطر منصبة على حياة تلك الجماهير العربية، وهي لاتكون مخاطر إلا إذا انصبت عليها واثرت فيها، او هددت بتأثير خطير، فالخطر على الجماهير العربية هو الجماهير لعربية في خطر، يستويان دلالة...والتفاعل الإيجابي بين الخطر والجماهير هو الذي سيلد الثورة وأداتها.

واني لاخشى خشية حقيقية من أن يكون تأجيل اقتحام المخاطر التي تهدد الوطن العربي بحجة أن أداة الثورة العربية لم توجد بعد، أن يكون مجرد تبرير ساذج للهرب من مواجهة المخاطر...إن الثوري حقا يبدع من خلال المعارك الأسلوب المناسب لإشعال الثورة، واستمرارها، مبتدئا بما هو متاح وممكن،ولكنه لا يكف لحظة عن إكمال أسباب النصر مستفيدا بتطورات الصراع الثوري ذاته.. ولأضرب لك مثلا: إن أداة الثورة العربية لابد أن تكون من القوميين التقدميين الثوريين..فكيف يمكن اكتشاف هؤلاء بكل خصائصهم القومية، والتقدمية، والثورية..؟ لن يكون طبعا في الادعاءات الفردية أو المناظرات الفكرية بل في آتون الاختبار القومي الثوري الحي..وأين يقع هذا الآتون..؟ في مرحلة ما قبل بناء التنظيم القومي. إذن فان بناة التنظيم القومي هم خريجو معارك الممكن. من معاناتهم يكتشفون ضرورته، ولا يكتشفونها بمجرد الدراسة العلمية، أو التأمل النظري..وفي ساحة النضال بالممكن يكون الفارق بين بناة التنظيم القومي وغيرهم. إن غيرهم يكتفي بما هو متاح وممكن ويبيع المستقبل بالحاضر، أما بناة التنظيم القومي فانهم يعدون أنفسهم في النضال بالممكن من اجل النضال بما يجب أن يكون...

أرفض مقايضة ارض عربية ، بأرض عربية أخرى...

قلت: إسرائيل تماطل في تحقيق التسوية، فكيف ترون أن الأنظمة العربية تستطيع أن تخرج من المأزق...؟

قال:إن كنت تقصد أن مماطلة إسرائيل في تحقيق التسوية هي التي وضعت الأنظمة العربية في المأزق، فإنني لا أتمنى أن تكف إسرائيل عن مماطلتها ولا أن تخرج الأنظمة العربية من مأزقها...ذلك لان معنى هذا ان تتم" التسوية"...وأنا ضد " التسوية"، أقول التسوية معرفة بالألف واللام..أي ذلك المشروع الأمريكي الأصل، الصهيوني المضمون الذي يتضمن الاعتراف بدولة الصهاينة.....إنني ضد التسوية مهما كانت الشروط الأخرى، اعني بصريح العبارة إنني ضد الاعتراف بدولة الصهاينة اعترافا صريحا أو ضمنيا مهما يكن المقابل. حتى لو كان المقابل الجلاء عن الأرض التي احتلها الصهاينة في ١٩٦٧ ، لأنني كقومي، لا أقل مقايضة ارض عربية بأرض عربية...

أما إذا كنت تقصد كيف تخرج الأنظمة العربية من المأزق الذي وضعتها فيه مماطلة إسرائيل في تحقيق التسوية، بدون التسوية، فالأمر بسيط ، لقد بذلت الأنظمة العربية من الجهد اكثر بكثير مما يجب لتكتشف الطبيعة العدوانية للصهيونية، وتحملت مما يمس كرامة الشعب العربي مالا يغتفر.. ومع ذلك فأن أبواب الخروج من المأزق غير مغلقة، ما الذي يمنع مثلا من أن تعلن الأنظمة العربية أنها قد " مشت مع الكذاب حتى باب الدار" كما يقول المثل المصري لتكشف للعالم انه كذاب...ثم تعود إلى الحق.....

أريد أن أقول أن مأزق الأنظمة العربية مأزق إستراتيجي، بمعنى انهم تورطوا فحولوا المواقف التكتيكية إلى أهداف استراتيجية، فحقيقة المأزق ليس كامنة فيما يفعلون أو يقولون الآن ، فان المناورات السياسية تتسع لكل أساليب التكتيك، ولكنها كامنة في انهم يريدون فعلا أن يتصالحوا مع إسرائيل ويعترفوا بها ويضمنوا أمنها... وهذا لن يكون.. أن الأنظمة العربية هي التي اصطنعت مآزقها وحشرت نفسها فيه، و أغلقت عليها أبوابه..ولم تضعها فيه إسرائيل..فقل لهم اخرجوا كما دخلتم فلا أحد يمنعكم من أن تخرجوا...ولا حتى إسرائيل...

....

....

الوحدة ..وفلسطين..

قلت بعد نكسة حزيران كثر الجدل حول تحرير فلسطين،هل تحرير فلسطين يحقق الوحدة ، أم إن تحقيق الوحدة هو الطريق إلى تحرير فلسطين...؟ هل تعتقدون أن الأحداث قد حسمت هذه المسألة؟

قال: من قبل قال الفيلسوف الرياضي العربي الكبير ابن الهيثم" كل مذهبين مختلفين إما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا ، واما أن يكونا جميعا يؤديان إلى معنى واحد وهو الحقيقة، فإذا تحقق في البحث وانعم في النظر ظهر الاتفاق وانتهى الخلاف"...ونقتدي به فنقول: ان لكل مشكلة في واقع معين من زمن معين حل صحيح واحد.. وان اختلاف الناس حول حقيقة الحل لا يعني أن ثمة حقيقتين، بل يعني انهم غير متفقين في فهم حقيقة المشكلة أو حقيقة الحل الذي يحدده الواقع الموضوعي...

نطبق فنجيب بان تحرير فلسطين قد يحقق الوحدة..وقد لا يحققها..فكم من قطر عربي تحرر فاصبح اكثر إقليمية...!! أما إن تحقيق الوحدة هو الطريق إلى تحرير فلسطين ، فلست اعرف كيف تتحقق الوحدة العربية قبل أن تتحرر فلسطين إلا أن تكون وحدة جزئية...فإذا كانت وحدة جزئية فان الأمر يتوقف إلى حد ما على تلك الأجزاء التي توحدت...هب مثلا أن تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصحراء توحدت في مشروع " المغرب العربي الكبير" أو أن سوريا والعراق والأردن ولبنان توحدت في مشروع" الهلال الخصيب" فهل تتحرر فلسطين..؟!!

المسألة في رأيي لا تطرح على هذا الوجه...

إن تحرير فلسطين والوحدة كليهما هدف استراتيجي، والنضال من اجل تحرير فلسطين ممكن..والنضال من اجل الوحدة ممكن..وإمكانيات التحرير متاحة بشريا وماديا كما أن إمكانيات الوحدة متاحة بشريا وماديا..وفي مواجهة قوى التحرر والوحدة توجد قوى الاستعمار والتجزئة ، والصراع محتدم...ولا يستطيع أي طرف أن ينتصر في النهاية في عزلة عن محاولات الطرف الآخر هزيمته..هذا الواقع الموضوعي هو الذي يحدد مشكلة العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية، ويحدد الحل الصحيح لتلك المشكلة...

في هذا الواقع الموضوعي لاتكون المشكلة في أيهما يسبق الآخر..تحرير فلسطين أو الوحدة..؟لان هذا الترتيب الزمني يعني تأجيل النضال من اجل أيهما إلى أن يتم النصر على الأخرى، وهو مستحيل إلا إذا كنا نبحث عن الهزيمة في إحداهما أو كليهما..إنما تكون مشكلة العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية كما يطرحها الواقع الموضوعي حاليا، هي:ما هي افضل أساليب النضال العربي التي تؤدي إلى الانتصار في معركة تحرير فلسطين ومعركة الوحدة العربية كليهما..وهكذا يتحدد الحل موضوعيا..ان افضل الأساليب هو الذي لايفصل بين المعركتين ولا يكسب إحداهما أو يحاول أن يكسب إحداهما على حساب الأخرى، والذي يستفيد من ساحة المعركتين، عن طريق التكامل، بما هو متاح من أساليب النصر في ساحة كل معركة...

إذا كان هذا هو الحل الصحيح المحدد موضوعيا لمشكلة العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية، يطرح سؤال آخر ذاته بالضرورة، كيف يمكن ضمان التزام هذا الأسلوب الأفضل لتحقيق الحل الصحيح، ولن يكون إلا جواب واحد: وحدة القوى التحررية الوحدوية، أن تكون القوة التي تناضل من أجل تحرير فلسطين والوحدة العربية قوة موحدة التنظيم، موحدة القيادة، موحدة الاستراتيجية، ثم تتنوع المعارك والمواقف تكتيكيا تبعا لاختلاف المعارك وساحاتها، ولكن وحدة القوى تضمن دائما ألا تنفصل المعركتان ولا يحاول أحد كسب معركة على حساب الأخرى كما تضمن الاستفادة في ساحة المعركتين عن طريق التكامل بما هو متاح من أسباب النصر في ساحة كل معركة....

من هنا نستطيع أن نقول: إن تحرير فلسطين لن يكون طريقا إلى الوحدة إلا إذا حررتها أو قادت معركة تحريرها القوى الوحدوية، وان الوحدة" الجزئية" لن تكون طريقا إلى تحرير فلسطين إلا إذا وحدها أو قاد معركة توحيدها التحرريون..ولما كان القوميون التقدميون هم الذين يتوافر فيهما شرطا الحرية والحدة، فانهم هم وحدهم المؤهلون لتحرير فلسطين وتحقيق الوحدة معا من خلال نضال موحد القوى متعدد الساحات، موحد الاستراتيجية متنوع التكتيك..،وإذا كنت في شك من هذا فانظر حولك ترى دولا عربية متحررة تحارب الوحدة،

وترى دولا عربية ترفع شعارات الوحدة ولا تساهم في معارك التحرير، وهي تحذيرات واقعية قائمة في الوطن العربي من تحويل العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية إلى أوهام مستقبلية...

....
سأكتب ما أعتقد أن الجماهير في حاجة الى الرأي فيه..

قلت: عالجتم مشكلة الأحزاب والديمقراطية في فترة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في كتابين صدرا مؤخرا، ماهي الدواعي التي استوجبت ذلك، وهل في نيتكم الاستمرار في دراسة تلك الفترة من النواحي الأخرى الاشتراكية والوحدة...؟

قال: إن معالجتي لمشكلة الأحزاب والديمقراطية في فترة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لم تكن محاولة لكتابة تاريخ تلك المرحلة،ولكن كانت تعبيرا يستمد مادته من تلك الفترة عن موقف مما هو قائم... وما هو قائم أن الديمقراطية قد أصبحت في حاجة إلى مناقشة بعد أن حاول الليبراليون الردة إلى ما قبل ١٩٥٢ ، فالكتابان اللذان أشرت إليهما هما في الحقيقة سهمين في جعبتي أطلقتهما دفعا للخطر الليبرالي، ودفاعا عن الديمقراطية والاشتراكية..

أما عن نيتي الاستمرار في دراسة تلك الفترة من النواحي الأخرى، الاشتراكية والوحدة.، فان نيتي، ان امتد بي العمر وسمحت لي الظروف بأن اكتب تاريخ تلك الفترة بكل نواحيها، والى أن يكون ذلك ممكنا فاني سأكتب ما أعتقد أن جماهيرنا في حاجة إلى الرأي فيه وفي حينه...

حولوا...دون أن توقع يد عربية وثيقة التنازل للصهاينة....

قلت: هل من كلمة تودون قولها للشباب العربي في هذه المرحلة دون تحديد سؤال..؟

قال: وهل كتبت أو قلت كلمة من قبل إلا للشباب العربي..!! على أي حال ، أقول لهم : أن واجبكم في هذه المرحلة قد اصبح محددا. إنكم لستم في حاجة إلى نظريات لتحولوا دون أن ينهزم جيلنا، أمتكم التي ستتحملون مسؤولية قيادتها. إن الاعتراف بإسرائيل لا يعني أن الأمة العربية قد فقدت فلسطين إلى الأبد، ولكن يعني أن ثمن استردادها سيكون اكثر فداحة واكثر دموية، وانتم شباب اليوم الذين ستدفعون الثمن الدموي الفادح من حياتكم لتصحيح مايهم جيلنا الفاشل ارتكابه، فوفروا دماءكم من الآن،وحولوا- بكل أسلوب- دون أن توقع يد عربية وثيقة التنازل للصهاينة عن ارض فلسطين، وكونوا واثقين انهم يملكون هذا الحق..
وإنكم المنتصرون...
****